الشاهد التناصي

بلقاسم عيساني
جامعة المدية

الملخص

المقال توصيف للشاهد التناصي من عدة زوايا : الفينومولوجيا والسيميولوجيا والجينيالوجيا عبر خطوات وتمظهرات منها الاقتطاع والتسطير والتوليف والانجذاب ثم الزرع، إضافة إلى التركيز على كيفية عمل هذا الشاهد داخل النص كفعالية لغوية والانتقال عبره من الدلالة إلى التدليل ليصبح التناص أداة حفر وتأويل في تشكل جديد للمعنى .

Résumé
L'article concerne la citation et son travail dans le texte comme un fait de langage ou comme pratique instituée , puisque la citation est un acte , une forme , et une fonction. L'acte commande une phénoménologie qui le situe dans la lecture et dans l'écriture , la forme : une sémiologie qui apprécie son mode de faire sens dans le texte , la fonction : une généalogie qui recense ses valeurs historiques . l'article décrit aussi la citation comme un élément qui forme le discours.

Abstract
The article is a description for intertextuality procedure from a phemenological, semiological, and geniological points of view, by many steps like the cut , underline , ect , the work of the intertextuality is in the texte as a fact of language, as a function, and a form , and a way to make sens , and also as element wich transform the meaning from the signification to the signifiance.

لهذا المقال موضوع محدد بهوية ثابتة، لكنه موضوع بشقّين يتراوح بينهما : الأول هو الشاهد la citation، والذي يمنح النص طعما خاصا كأنه بهار الطعام كما يصفه هوبز، الثاني هو عمل الشاهد le travail de la citation أي امتلاكه وكيفية استيعابه من طرف النص، أي تلك القوة التي تحرّكه من موقع نصي إلى آخر مختصرة منطق الكتابة حيث تتناقل الكتب تداخلات جُمَلية بطرائق لا تنتهي من منظور تفسيري أو نقدي ولكن الشواهد تُستجلب وتُكيّف، فكل كتابة إعادة تأليف لمكتوب سابق أو توليف أو إعادة سبك للماسبق من المقروء (J.Kristeva.1969.p85) وكل ملفوظية تعيد استعمال واستخدام ملفوظ سابق، والناقد المتتبّع المهتم همّه الأول وصف الكيفية من حيث إحلال الشاهد في النص كتجريب مزمن يخلّف أنواعا كثيرا من الإعادات الشكلية لكنها مختلفة كل مرّة لذا سنطلق عليها مصطلح المعاودة كونها إعادة موظفة في سياق جديد، إذ التأمّل في الشاهد مطلقا هو بمثابة الحصول على معرفة كيفية التكوين لكل عمل أو كتاب، كمجموع شواهد لغوية منسوجة من أمشاج أصول ما، ليبقى السؤال المهم : ماذا نفعل مع الأقوال السابقة ؟ هذه الاقوال التي تسري في كلامنا شعرنا بذلك أم لم نشعر، ومن أين أخذنا اللغة ؟ من الآخرين بالطبع، ولذلك لا يمتلك أحد اللغة، هي موروث نتصرّف فيه، القضية الكبرى هي كيف يتم التصرّف فيه ؟ وهل لطرائقه مسمّيات اصطلاحية خاصة ؟ فبهذه القناعة نجد أن الكلمات والعبارات والجمل في دوران لا يعرف التوقّف، وتغيّر مبناها وتشكيلاتها لا تعرف التوقف أيضا، ويمكن أن نحصر ميادين الدراسة التناصية هذه في أربعة مجالات أو تخصّصات :

الفينومينولوجيا : تصف سلوك الشاهد وتحرّكاته في تجربة قرائية وكتابية مباشرة حيث تُحل الشاهد كدور رئيسي في أي تطبيقات نصّية، وتركّز الضوء على الشاهد الوارد بين قوسين، أي الظاهر معروف الأصل والمنبت .

السيميولوجيا : إذ هي تحليل شكلي ومتزامن للغة حيت تتكرّس مجموعة متلاحقة من الشواهد، أي تمظهرها التناصي غالب عليها، لاستبصار كيفية عمل الشاهد لينتج المعنى كملفوظية وكملفوظ في إطار الخطاب الذي ورد فيه، حيث ترصد مجموع الاختلالات التي يحدثها الشاهد عند دخوله كجزئية نصّية في نص الخطاب وأثرها على اشتغال اللغة إذ تقترح تصنيفية شكلية une typologie formelle للقيمة

الملفوظية للشواهد، فهي تقرأ الشاهد كعلامة لها مبرّرات وجودها في مكانها ذاك حيث يعتبر عمل الشاهد جزء من عمل اللغة

الجينيالوجيا :

تتتبّع المسار التطوّري لمجمل التطبيقات المؤسِّسة والوظائف التي تقوم بها الشواهد، فلسنا بصدد سرد لتاريخ الشاهد ولكن البحث والتقصي لبعض الاستعمالات وأصول ملفوظاتها يبدو ضروريا لإعطاء صورة عن كيفية اشتغالها داخل النص إذ تتعدد وظائفها في الخطاب فيمكن مقارنة مجموعة خطابات وتنوّع الدور التناصي فيها بدراسة الحقل الدلالي، والمقوّمات المنطقية لتخيّر الشاهد وتاريخ هذا الشاهد في نصّه السابق ،وتحديد المثال الذي يتخيّره الخطاب في كيفية التوظيف، والنظر النقدي إلى دور الشاهد مرّ بعدة مراحل تاريخية منها البلاغة القديمة بدءا من أرسطو إذ اعتبره مع كينتيليان جزءا من متطلّبات المحاكاة، كما أن الشاهد عرف رواجا واسعا من خلال الاستشهاد بمقاطع من الإنجيل في الخطاب الديني الكنسي، ثم بدأت تكتسب دلالة نصّية على المستوى النقدي ابتداءا من باسكال ومن عاصره إذ اكتسب الشاهد بعدا رمزيا وبدأ الحديث عنه من منظور أنه ملكية فكرية يمكن التشاجر حولها والخلاف، فأصبح العمل معترف به أنه بين دفّتين، وأن أقوال الآخرين تستوجب التوثيق حين تدخل في متون كتّاب آخرين، وفي مرحلة تالية ساد النقاش حول السرقات الأدبية وتم تجاوز القوسين وساد الاعتقاد بإمكانية التناص مع شواهد دونهما مما يعني أن المجال اللغوي مفتوح على التأثر والتأثير بما يمكن إدراك مصدره وبما لا يمكن، دون أن يؤدّي هذا التوسيع إلى توصيف نقدي لتوظيف الشاهد حيث كان النظر مركّز على فحوى الشاهد بالمقارنة مع المتن الذي دخل فيه، أي رؤية تقتفي المضمون فقط ثم انتقل الأمر إلى اعتبار توظيف الشاهد آلية كتابة وتعبير، ويتخذ طابعا حجاجيا حين يتم الاستعانة بأقوال الآخرين لتدعيم فرضية ما، وأصبحت تطبيقا لغويا يتم التدرّب عليه، وأضحى هناك اعتقاد راسخ أن الكل ينسخ أقوال الكل ولا جديد تحت شمس اللغة غير الإعادة بطرق مختلفة .

التقطيع واللصق

" حين كنت طفلا امتلكت مقصا ذو حواف دائرية كي لا يتسبب لي في جروح، فنزق الاطفال معروف قبل بلوغ سن الرّشد حيث يلقنون اللغة، والمقص في يدي، كنت اقص كل ما تعثر عليه يداي من ورق أو قماش وحتى بعض ملابسي أحيانا، فكانت

الأسرة تغريني بأني إذا بقيت لفترة وديعا مسالما يمنحونني مجموعة من الصوّر لقصّها وأتخاذها لعبة، كانت عبارة عن ورقة كبيرة فكان أن أقوم بعملية القص الدقيقة لصور الطائرات والبواخر والأشخاص، ثم أكوّن من الجميع قصصا بشخوص ووسائل، مما يستدعي قصّا في غاية الإتقان ثم تخيّر للمقصوصات ثم تركيبها في سياق يخلق مسيرة سردية، وحين كنت أخطئ في التقطيع تنتابني هيستيرية غضب، وأتمنى لو حصلت على غراء لاصق لأصلح الخلل، والإصلاح لا يعوّض أبدا الأصل، كنت أحب أن ألعب بهذا الشكل، كما كنت أرسم شخوصا على أوراق، ألوّنها ثم أقصّها لأصنع منها عالما مشكّل حسب ذائقتي في خلط واضح لبعض صور الواقع مع صور متخلّقة من مخيال يتوسّع أكثر فأكثر، هذه لعبة ورقية لكن لعبة القراءة والكتابة لا تختلف عنها كثيرا، وأبرز من أتقن لعبتها جيمس جويس ومارسل بروست لحضور الإستشهاد لديهم بقوّة من خلال البتر والإلحاق "ِ (Antoine compagnon .1979.p15)، فعند الاستشهاد بكلمة أو جملة أو عبارة فإن ذلك سيكون بمثابة اقتطاع، تمثيل بالعبارة وتقطيع لأوصالها، تخيّر عبر الحذف والإبقاء، فإذا كان النص امتداد دلالي، فإن القراءة تتوقّف عند مدلولات ما، تفكّر في عزلها عما قبلها وما بعدها لتستولي عليها وتخرجها من قرارها المكين، كالعضو الذي ينتزع من جسم ويُزرع في آخر، فيعيش به نص آخر ويبدو به أجمل، فالقراءة تعمد هنا إلى افتراس النص الذي تود الاستيلاء على أعضائه الحيوية وتمنحها نصا آخر، إنها توقف سياقا عن العمل لتستأنف آخر بأدوات جديدة متمثلة في مجموعة استشهادات تمثل عادة أنفس ما يؤثث فضاء النص الأول، فالقراءة التي تنتهج تخيّر العبارات لأخذها إنما هي قراءة منتخِبة تصطاد الجمل كالطرائد لتوظفها في رحلات صيد جديدة، لأنه لو قارنا المقروء مع المسموع، فإن القراءة تتيح الرجوع إلى أية فقرة أو صفحة سابقة، هذا الرجوع يمكن أن يعني التوقّف عند ما يعجب أو يسحر لفرط بيانه أو يسترعي الانتباه بشكل من الأشكال، ..وهذا التوقّف يفكّك النص، ويبعث التفكير في رؤية غيرية لتركيباته، إنها قراءة تشبه عملية المضغ قبل الابتلاع، " فالقراءة لا تقدّم مقروءها نيّئا إلى الذاكرة للتخزين قبل أن تتشرّبه الروح مع شيء من جذل الاستمتاع الفني، ولا يكون جاهزا لتقليده أو إدخاله في ملفوظنا إلا بعد أن يُدقّ ويُهرس ويُحوّل إلى طاقة لفظية تزوّد رصيدنا من طرائق التعبير " (compagnon.p18) فالقراءة مبنية أساسا على مبدأ النهب والسلب، أي محاولة مستمرّة للامتلاك المقروء داخل الذاكرة ليتم إخراجه في اللحظة

المناسبة من خلال التذكّر للاستشهاد باعتباره لغة خاصة داخل سياق لغوي يغايره، لنستشف بُعدَه الاستعاري كتطبيق لغوي " فالاستعارة كصورة بليغة تعوّض العبارة العادية بما تضيفه من جمالية وتصبح بديلا عنها وفقا لمبدأ التناظر " (P.Fantanier 1968.p99) .. وكذلك الاستشهاد له ذات الفعل والتأثير،

ضع تحته خط :

حين نقرأ وقلم رصاص في اليد، ونضع خطا تحت عبارة ما، أو نحيط فقرة بدائرة، فذلك بمثابة التفصيل قبل الخياطة، أي ممارسة القص والعزل، فالخط كعلامة تحت كتابة ما مرحلة من مراحل القراءة، مما يمثل تأكيدا على أهمية ما سُطّر تحته من منظور من قام بذلك، مما يعني أيضا توجها للقراءة بطريقة ما، إنه امتلاك للنص بتسطير أهم ما فيه وفق وجهة نظر جد ذاتية، فهذا الفعل على مستوى القراءة يشبه بشكل من الأشكال ذلك التمييز الذي يقيمه الكاتب في ثنايا متونه حينما يجعل بعض الفقرات بالخط الخشن لتغاير الباقي، إنها حمولة زائدة في الدلالة يحمّلها المؤلف عبر الخط، ويهمس بها إلى القارئ، هنا الخط الخشن يتحوّل إلى علامة تبلّغ سيميائيا وكأنها مفتاح شفروي بين المؤلف وقارئه، فالتسطير تحت كلمة، والملاحظات على هامش النص ، كل ذلك يُعد نصا في حد ذاته، ومما اشتهر من ذلك مؤشرات لينين حول مؤلفات هيجل، فالتأشير على بعض مكوّنات نص ما هو الصورة الأولى للاستشهاد حيث هو تتبّع وتخيّر تمهيدا لتعلّق خاص ببعض جزئيات النص، إنه المنظم للتسارع الخاص بالقراءة الفردية، والاحتفاظ بتلك الجزئيات في الذاكرة أو عبر مكتوب هو الخطوة الأولى في تحّولها إلى شواهد، أحيانا تلعب هذه الشواهد دورا محوريا في الإقبال على قراءة الكتابة حين يتسامع بها القراء، فإذا حاولنا حصر الاستشهاد كمفهوم نقول : " الاستشهاد هو حيّز للتوليف النصي ناتج عن سابق ترصّد، مدمج في سيرورة نصّية، يخضع لتصنيفية محددة من القدرات القرائية (Compagnon.p23)" والتعرّف عليه أولى طرق فهمه، فهو ذو وظيفة تربط آفاق الكلام بعضه ببعض، أو آفاق المتون عند التقائها فيصنع منها اتصالا أو قطيعة، ولكنه مثير ومغري بمقولات تفاجئ القارئ حين يجدها في غير مواضعها مما ألِف في معرفته القبلية، فعلى مستوى القراءة نتساءل : ما الذي يجعلنا نقف عند عبارة ما ؟ وما سر الانجذاب إليها ؟ هل السبب فيها أم ترافقها مع حدث ما، فالاهتمام بعبارة ما هو مجموع ميكانيزمات لم تبح بكل معطياتها إذ هي تمتد من الجانب النفسي إلى

السوسيولوجي إلى المعرفي إلى سحر اللغة وقدرتها المتفوّقة على تجاوز سحر البيان فيها، " هذا التوقف ينتج شعورا ما بالقرب والتفاعل صادران عن إعجاب " (Louis Massignon.1970.p436) فلحظة اللقاء بين الذات القارئة وعبارة متأطّرة بخصوصية ما هي لحظة خاطفة ولكنها متفرّدة إذ تصنع شخصية المتلقي ورود فعله الفردية اتجاه ما يقرأ وبالتالي شخصيته الثقافية ومجموع ما قرأ هو اللون المعرفي الذي يتميّز به كل شخص، فالعبارة تأخذ قيمتها الوظيفية في لحظة القراءة، ومن هنا كان المستعمل والمهمل في تناظر واضح مع التصنيف الصرفي القديم، فالعبارات التي تجد لذاتها رواجا وانتقالا بين المتون هي عبارات حية، وهنا تماما يبدأ النشاط التناصي في التكوّن عن طريق الاستشهاد .

كيف تشتغل القراءة :

ولها خطوات وتمظهرات منها الاقتطاع والتسطير والتوليف والانجذاب , ablation soulignement , accommodation , et sollicitation (Compagnon p17-25)، فكيف تنتظم هذه الخطوات فيما بينها ؟ وهل هي تمظهرات تتم بالتوازي أم بالتعاقب ؟ فالمتتبّع يستنتج أن كل واحدة منها يمكن أن تعوض الأخريات ولكن رغم ذلك فإن تدرّجا بينها موجود ولكنه خفي لا يكاد يبين، ومجموعها يمثّل بالنص ، يقطّعه إربا إربا، إذن هي مقاربات دقيقة تشكّل استراتيجية قرائية لا يد لنا فيها، بمعنى أن القراءة تمارس سلطتها على المتلقي على هذا النحو، فالعملية ليست فهما خالصا، بل فيها قدر من الاستمتاع يمثله الانجذاب دونه تكون القراءة تعامل ذهني بحت لا يسمح للإشعاع الذي ينطلق من سحر البيان أن يفعل فعله وبالتالي تشرّبه يكون دون ما تتطلّبه اللغة من تفاعل ذاك الذي يشحن النفس بحوافز التقبل وحسن التلقّي، وذاك الاستمتاع هو الصانع الأول للاستشهاد لأن الذات تحب الاحتفاظ بمقروء لغوي تستخدمه وقت الحاجة، فالكتابة تعيد متعة القراءة بإعادة توظيف ذلك المنقول بتكراره في نصوص أخرى، إذ هما وجهان لعملة واحدة، والقراءة هي أنتولوجيا التكوين لعقل مؤلف ما،

يتعيّن الاستشهاد بسمتين : الاقتطاع prélèvement والزرع greffe، مع أن العبارة المقتطعة لا تلبث أن تغيّر جلد دلالتها وتنسلخ منه لصالح دلالة يصنعها السياق الجديد، فيما يشبه التفكيك والتركيب، الفصل والإلحاق كما تلغّم وتطعّم الأشجار بلواحق أشجار أخر من غير ذات النوع، أو القص و اللصق، فالاستشهاد يمارس فعلا

دياليكتيكيا قويا ودقيقا بين النزع والإلحاق فيما يشبه الجراحة، تحريك للملفوظات من ... إلى، وذاك الفعل آلية من آليات اللغة في عدم التوقف عند حد للمنقولات مما يعفي على آثار حدودها وهي تعبر من متن إلى آخر، متجاوزة التعاقب الزمني(نص جاهلي يستبطن نص معاصر) والمضامين وحواملها الشكلية (نص شعري يحتويه نص روائي)، بل إن التناص كحركية تفاعلية جعلت بعض الشواهد كالقوالب لكثرة تردّدها بين المتون، وكذلك على هوامشها في مثل ما نسميه بالتصدير والذي دائما يكون قد استُقدم من مؤلفات أخرى يُؤتى به لتقديم النص الذي يليه وفقا لوظائف عدة، فالاهتمام منصب في غالب الأحيان على الشاهد كموضوع وفحوى بينما يتم تجاهل من وظّف النص وما هي أسباب اختيار متن معيّن دون آخر، بينما ذلك كان سيُبصّرُنا بحيثيات التوظيف وأفق السياقات، فالاستشهاد دائما نتيجة حاجة نصّية ما، تحديد هذه الحاجة سيجعلنا نفهم لأي شيء قمنا بذلك الاستجلاب لذلك النص الغيري، فالشاهد عبارة عن عضو مقطوع عن أصله ولكن سرعان ما ينسجم في الجسم الجديد الحي المتفاعل، وعادة ما يكون الاستشهاد بجملة لأنها خير حامل لدلالة محدودة تبلّغ بأقرب الطرق وأوجزها، أو بعدة جمل تلعب دور الجملة الواحدة، فالتأثير والتأثر عبر الشواهد دليل على حياة النص وقابليته للتداول، فالاستعمال المتواتر قرين الحيوية، ولهذا فالتناص عنوان حياة النصوص، لأن ثمرة لقاء النصوص : تصادمها، تقاطعها، وتداخلها الذي لا يعرف التوقّف .

الزرع : Greffe

الشاهد جسم دخيل على النص، لأنه لم يكن فيه عند تشكّله الأول (كلمة الأول هنا لا تعني أبدا تعيين زمني وإنما مجرّد خطوة إجرائية لتحديد دائرة التكوين المستمر المتسم بالتعاقبية) ولكنه ينسجم مع بنائه النصي الجديد الذي دخل فيه ويمتلكه هذا الأخير ويستوعبه، لكن ألا يوجد خطر من رفض الجسم اللغوي لدخول الوافد عليه كما نرى في زرع الأعضاء ورفض الجسم الحي لها، والجواب أن ذلك مرهون بمن يوظف الشاهد وعلى مهارته في ذلك التوظيف تماما كما يفعل الجراح الأريب الذي يدرس جيدا الأنسجة قبل استجوار بعضها مع بعض لتتفاعل وتتضام حتى تغدو نسيجا واحدا، ولكن هذا النسيج المتكوّن بفعل التضام عليه أن يرتفع بجمالية القراءة ويعطي تدليلا signifiance يستوعب الوافد والتالد في نص يُعتبر مختلفا عن كل منهما، والبناء عليه إلى أن يمحو كل تنافر يمكن أن يُستشف منه عدم انسجام ما، لكن هذا

الزرع للملفوظات هل هو متفرّد كنشاط لغوي أم أنه جزء عادي من حركية اللغة حين تتمظهر في عملية الكتابة، إذ أن المتون " تتواجه، تجتمع، وتوحّد بين عناصر متباينة، فالكتابة . خاصة لمن يخطط لما يكتب . تكون شذرات في البداية، أو ملاحظات، أو رؤوس أقلام، أو عبارات وفقرات لا رابط بينها ثم تتشكّل في فعل الكتابة نصا واحدا، فاصل الكتابة إذن مجموعة ملفوظات مشتتة في الذاكرة أو على الورق ثم يتم الجمع بينها، لكن هذا جمع له نسق يقوده، وله سياق يتحكم في توجّهات الدلالة، فما الكتابة سوى إعادة كتابة وصياغة للعناصر المجزّأة والمتفكّكة إلى عناصر مختلفة بجعلها تستجيب لمتطلّبات المقصدية الواحدة، هنا يتم لم شعث النص وجعله منسجما، إنه البحث عن تواصلية الخطاب، بمعنى أن العبارات تنتمي إلى خطابات ويتم تدجينها في خطاب واحد مما يحتم إجراء تغييرات أسلوبية ودلالية، إنها عملية جراحية تجري توافقات وإضافات وحذف ليتداخل الكل في توجّه خطابي جديد، فالكتابة في النهاية لها أصول تنبع منها، أي مجموع التعليقات والانتقادات والشروح واللصق والاستشهادات والملفوظ الاجتماعي وغيره، والكل سيصاغ نحو هدف واحد وغاية محددة .

فالاستشهاد جزء من كل، وقد شبّه بورخيص المؤلّف بلقب : الهاسيدور El Hacedor (J.L.Borges.1965.p18) ، والتي لا تنوب أية ترجمة للتعبير عن فحوى الاسم إلا إذا خانت بعض محمّلاته من الدلالة، مثل متعدد الحرف أو مرمّق، ذاك الذي يختار المواد من مصادر شتى قد لا تقع في بال أحد من قبله، يزيد فيها ويُنقص ويحوّر في شكلها وسمكها، ليصنع منها شيئا ذا قيمة وذا وظيفة نفعية أو عملا فنّيا، فكذلك المؤلف يجمع مواده من مصادر نصّية شتى ويمارس عليها القص والبتر والتشذيب ليألف بها عملا يُقرأ ويُثنى عليه، وفي ذلك للناس شؤون متنوّعة وكيفيات مختلفة، فأراغون مثلا يقول أنه يؤلف انطلاقا من مقولة واحدة عادة ما يستهل بها كتابه، ملفوظ لغوي سيكون مدارا للذي يليه في مسار يتميّز بقدرة ذاتية على التوجيه، أي ذاتي التطوّر لأن النص له قانونه الخاص في تعيين البداية والنهاية وما بينهما، وهذا المسار المستقل عن إرادة كاتبه يستجلب الشواهد ويستمدها من ذاكرة مؤلّفه وفقا لحاجته هو، ويقر أراغون أن حتى العناوين استلهمها من مقاطع كتابية لمؤلفين معينين واستجلبها بحكم التشارك الموضوعاتي، مثل كتابه : la Mise à mort وكذلك أسماء الفصول والجمل الأولى منها " فقد كنت أنقل حرفيا في فصل " أوديب " ما ذكره

جون دي بوي Jean de Bueil في الجملة التالية ce fut le plus tôt fait qu'on mit à concevoir (L.Aragon.1973.p509) ، وعندما تكون عبارات الآخرين هي الي يدور حولها العمل، فهل نسبة الكتاب إلى مؤلّفه مجرّد عبث خاصة أنه يقر بأنه مجرّد مركّب جامع لشتات المتون ؟ أم أن ذلك خاصية الكتابة التي لا مناص منها ؟ غير أن الكتابة هي منزلة بين منزلتين مهما كان الحضور الغيري فيها كثيفا، ونعني بذلك أن الكتاب ليس فقط شذرات كتب سابقة مقرّب بينها كما اتفق juxtaposition بل إن التخيّر والتحكم يطبع الكتاب بهوية تأليفية مميّزة، إذن الكتابة هي دائما إعادة كتابة، وهي بهذا لا تختلف عن الاستشهاد حين يعني هذا الأخير استجلاب + تعديل وتكييف adaptation، إذ أن موقعه مزدوج الوجود في القراءة والكتابة معا، لأنه يُؤخذ من الأولى ويوظف في الثانية، فهو الشغف بالأولى يتجلى ذلك في التصدير ذلك القول الذي يستولي على مجامع القلوب حتى يصبح لسان الحال فيثبّت في صدر المتون، وتثبيته يكون ممهورا باسم مؤلّفه، لكن هناك الاستشهاد المجهول المصدر وهو الأكثر سوادا في النصوص ليتساءل المرء ما هي حدود الملكية في فن القول التي يتنازعها المشتغلون بالأدب، وهل هناك تأثر وتأثير أم أن هناك سرقة وتحايل في السرقة ذاتها كما يقر بذلك لويس أراغون (L.Aragon.p455) ، وقد تختلف التقييمات في النظر حتى إلى النقل المباشر كما فعل بيار مينار حين كتب نسخة تكاد تكون طبق الأصل من رواية دون كيشوت لسيرفانتيس، ولكنها كانت كتابة معارضة كإعادة كتابة تختلف في الرؤية مما يبرّئها من تهمة التقليد ويلحقها بباب التصحيف المبدع.

عمل الشاهد :

إن الذي يهم في العملية التناصية هو الكيفية، وهذا يوصّف اللغة في تفاعلها الداخلي الذي يعتمد على تدوير الكلمة والصياغات عبر الهدم وإعادة البناء، مع الاحتفاظ بهوية بعض الملفوظات كانتماءات معيّنة لتستجلب معها خصائص الخطاب، إذن اللغة لها في توظيف الشاهد مقاصد جليلة هي المعنية بالبحث وليس تبيان الشاهد في حد ذاته، من هنا تكون التفاعلية وكيفية حدوثها أهم ما يمكن أن يُبحث ويُرَكّز عليه، فللغة مستويات ذروتها البعد الرمزي في التوظيف لأنه ينقلنا إلى مستوى تجريدي متعالي، وهذا يتيح قدرة متفاوتة تتجاوز ذاتها باستمرار في ارتفاع منسوب الأدبية في النصوص وبالتالي تكريس دائم ومتزايد لسحر البيان، كما تعكس الجهد العقلي المبذول في رصد حركية اللغة من الداخل هذه الحركية التي تشبه المتاهة، لأن من يزعم القدرة على

ترصّد مجموع التناصات التي تدخل في نص ما فهو واهم، كون التناص هو المعرفة الإنسانية قاطبة، علاوة على أن هذه الشواهد تشتغل داخل اللغة لتوليد نصوص جديدة ولكنها تحمل دائما البذور التي تنبئ عن أصولها، لكن سلّم DNA هذا والحامل لمجمل موروثات النصوص يحتاج إلى عقل جامع يعقد الصلات بينها، فالشاهد يحرّك القريحة ويشحذها، حين يجبر صاحبها على التجوال في غياهب الذاكرة كمن يتتبّع الأثر colportage et filature، وغنى الدلالة يتأتى من هذا التعدد الإحالي حيث يضحى الاستشهاد مادة القول وموضوعه، فالقراءة عبارة عن تجميع للاستشهادات لا يعرف نهاية، أي أن كل مقروء مشروع استشهاد، فتتحول الكتابة إلى إعادة كتابة، أي أن تأثير المقروء على المكتوب لا حائل دونه، هضم ثم إعادة إنتاج، فالكتابة إنتاج تعتمد على رصيد تراكمي من التخزين اللغوي الذي يختار المناسبة السانحة للظهور لينتج نصّا، فاللعبة التناصية تخلق المعنى من تعالقات شتى، ولكن هذا المعنى نتاج بعدي لها، أي ثمرتها، فالشاهد في حد ذاته لا معنى وظيفي له، إن هو إلا عبارة كبقية العبارات والجمل أو فقرة كبقية الفقرات، لكن أهمّيته تكمن في اللعبة التي حُشر فيها، واللعبة هو كيفية تصريفية لغوية تتم على الملفوظات بحكم تكوين الملفوظ وتداوليته، أي أن النشاط اللغوي يقوم بتغيير مواقع بعض التراكيب لغايات متعددة، ثم رصد جديد المعنى المترتّب عن ذاك التغيير في المواقع كونه يتسبب في عقد صلات جديدة بين الملفوظات .

فالشاهد تناصّيا لا قيمة له حين يُعزل ويُؤتى به فردا، بل قيمته داخل معترك اللغة، هناك يكون ظاهرة تستحق أن تُدرس، بل إن نيتشة ينكر وجود معنى خارج الظاهرة التي يمثلها (G.Deuleuze.1970.p4) وينطبق ذلك على الاستشهاد أيضا، والذي يستمد أهمية دوره من القوة التي تحرّكه، والتي تضعه موضعه، فالمعنى متوقف على حقل القوى المتمكّنة والتي تخلق بهذا التجاذب تعدد الرؤى للمعنى، هذا التعدد متعايش ككوكبة نجمية constellation متداخلة الأنوار (Deuleuse.p84)حيث يمكن أن ننتظر إجابتين من طرح سؤال واحد : ما المقصود بالعبارة ؟ الجواب الأول مقصدية العبارة في حد ذاتها، أما الثانية فمقصدية العبارة في تواجدها في ذلك الموقع بالذات، وشتان بين الوضعيتين، الأولى تعزل عن سياقها والثانية تُستبقى فيه، ولو غيّرنا السياق لتغيّر المعنى، هكذا دون حدود ولا نهاية، فمعنى الشاهد مرتبط بكيفية توظيفه في سياق، فقوّة التحريك والتموقع هي الأساس في العملية التناصية، وتتغيّر

صورة الشاهد إن كان بين قوسين (" ") أم كان مفتوحا، لأنه في الحالة الأولى يحتفظ الشاهد ببعض هويته إذ يذكر صاحبه معه غالبا كنوع من التوثيق، زيادة على أن الشاهد يكون مؤطّرا خطيا وحدوده معيّنة لكن في الحالة الثانية فالشاهد عبارة عن ملفوظ عائم في بحر لغوي يحيط به، وعلى المتلقي إكسابه هويته الأصلية ثم الربط مع محيطه الجديد.

علامات التنصيص المشيرة إلى أقوال الآخرين تتنوّع بين وضع الكلام بين قوسين أو إظهاره عن طريق تخشين الخط وميلانه en italique، فالفارق الذي يحدثانه في التفريق بين الملفوظات مختلفة طبيعته، فالقوسان يحدّدان نوعية الملفوظ والمنسوب إلى جهة ما، أما الخط المميّز فيؤشّر على مضمونية كامنة تريد أن تتخطط وتتميّز، فهو يتخطى مفهوم التحديد إلى فحوى القول المنقول، ولفت انتباه القارئ بهذا الشكل يجعله أكثر يقظة حين يصل إلى الأسطر المهورة بالخط المميّز، أي توضيح لمستويات الخطاب، وقد أفاد رولان بارت (Roland Barthes.1975.p71) أن المعنى ينازع بعضه بعضا، فكأن للكتابة ما تعيّن به فوارق الارتفاع بين أنظمتها المعقدة والتي تنعكس كلها على الدلالة عند احتدام الملفوظات وتجاذباتها، وكأن اللغة سلّم موسيقي تحدد كل درجة ريتم اللحن ومقدار تسارعه، هذه الآلية يعتبرها بارت علما سمّاه bathmologie فيما يمكن اعتباره " علم مستويات الخطاب " تتحد به مؤشرات التأويل، غير أن الملفوظات الموجهة إلى مستوى ما نجدها خاضعة لمبدأ الانتشار dissémination والذي به تصبح الكلمات ذات حمولة رمزية في خطوط تتقاطع بيانيا مما يتعذر معها التتبّع الدقيق لمسارات المعنى، فأقوال الآخر تلتبس من حيث تداخلها مع متون صاحب الخطاب، ويعتبر كتاب بورخيس حول الآداب الجرمانية القديمة (J.L.Borges.1970) نموذجا للكتاب المتخم بالشواهد من حيث الاحتكاك الكثيف والمتصادم بين المتناصات الكثيرة في مقارنات بين الآداب والتأثيرات المتبادلة بينها حتى تستحيل نصوصها إلى تكاملات لا تنتهي لحضور نص في نص آخر مما يصعب الفصل بينها، فنجد بورخيس يدخل في غياهب النصوص لاستخراج مكنوناتها من ترسّبات الآداب السابقة، فما هي حدود النصوص وهل يتأتى لعلامات التنصيص سابقة الذكر أن تحصر الحدود وفحوى المتون وتمنعها من الاختلاط ؟ أم أن النصوص الأدبية امتداد يتجزّء في تواصل عارم كالنهر المتدفق ؟ وما هي الطاقة التي تصنع متنا ما بوقود ما سبقها من تآليف ؟

بالنسبة للنص، الظاهرة التناصية شديدة الارتباط بإخراج المعنى ونقطة استراتيجية بينهما لا يمكن فصمها، فالنص هو مجال عمل الشاهد، والمعنى نتاج الحذف واللصق والإلحاق، فالكيفية هي اشتغال داخل النص بين الترتيب والتحريك للملفوظات بعينها تشكل اختلافا نوعيا بين العوامل الساعية للانسجام، وهذا الأخير يصنع صورة النص إلى حين كون الصياغة ذاتها ستتحوّل إلى شاهد مميز في مقتبل النصوص المتكونة دون هوادة، إنها ديناميكية النص التي لا تعرف التوقّف، محرّكها دائما العمل التناصي كما يعتبر مفسّرها في ذات الوقت، فإذا كان الاستشهاد هو المؤشر الظاهر على التناص الواضح لأنه يستعين بقدرات القارئ من منظور تشغيل ذاكرته القرائية، فهذه هي الديناميكية النصّية التي تتيح توفّر الظاهرة كونه كذات قارئة يجد نفسه أمام نصّين يتبادلان التأثير في غياب التكافؤ équivalence بينهما ولكن أيضا في صيغة شديدة التركيز والإيجاز، وهذا التداخل النصي المركّب يحتاج إلى كل حصافة القارئ ليستوعبه ويستمتع به، كونه اكتشاف قرائي مقارن يربط ما ملأ الذاكرة منذ زمن قد يكون بعيدا مع نص حاضر للتو، فيقوم باستجلاب كل تلك الرؤى والخيالات التي أثارتها قراءة النص الأول، ولا زال هذا النص يعمل في نصوص حالية، فتتداخل هنا ثلاث رؤى : النص الأول والنص الثاني المتأثر به ورد فعل القارئ عليهما معا في الماضي والحاضر، لكن التلقي الثاني كان من خلال تفاعلية نصّية بين الإثنين فتتشكل دلالة ثالثة تستوعب الكل، فالتناص ظاهرة تحفر النص وتكشف عن أمشاج أصوله لتتعرّف على طريقة التكوين فتفردها واحدة بعد أخرى ليكون ذلك بمثابة فتح لمستغلقاته، فالاستشهاد في حد ذاته ليس سوى آلية نستنطقها ونركب موجتها لتوصلنا إلى ما تحت اللجّة من طرائق التشكل النصي، كأنها تعيد علينا مخاض الولادة وكيفية تفتّق الحياة (المعنى) فيها وأية صورة أخذ عند ولادته ولماذا كان على تلك الصورة دون غيرها، لا نبالغ إذا اعتبرنا التناص أداة تحليل توصلنا إلى السلم الوراثي للنص، كيف كانت البذرة الأولى وكيف أُخصبت colmatage (Compagnon.p44).

فالاستشهاد كظاهرة ينبئنا لا بفحوى الشاهد وإنما ما ترتّب عن توظيف هذا الشاهد في نسيج جديد، أي تحليل آفاق المساحة الدلالية المفتوحة والإضافة التي استجلبت عبره، والشاهد ليس فقط ملك لقائل ولكنه ممثل لخطاب ومن هذا الباب تأتي أهمية رصده وفاعليته، فالاستشهاد قوّة محرّكة ديناميكية تخلخل لتشكّل وتعبّر تعبيرا غير مسبوق، وإحراز السبق هذا ثمرة الفعل التناصي التي يمكن أن نتذوّقها أكثر بتحليل

وتبيان كيفية نضجها، لكن لنؤسّس بحثنا على إعادة نظر منهجية فنقول : ما هو الشاهد qu'est ce que la citation ? وقد نجد عند كل كاتب جوابا خاصا به، وكأن لسان حال المؤلفين يقول الشاهد يبلّغ عني، أو أستشهد بقول فلان ذلك يعني أنني أكن له الكثير من الإعجاب والود، أو هو عالمي الأدبي الذي به أستعين، أو أن القول من مختاراتي لأنه يمثل لدي حكمة بالغة أو نموذج فني يحتذى، أو أنني أريد أن أستحضر ما أثار إعجابي ... الخ من الأجوبة التي يمكن أن تصدر عن كل من يعاني تباريح الكتابة الإبداعية، لكن السؤال الأهم : هل نستطيع تقديم تعريف للاستشهاد يدخل في إطار نظرية للخطاب ؟ سندخل حينها في إشكاليات الانتماء النوعي والتصنيفات النظرية الرجراجة، لكن يمكننا الاسترسال في طرح الأسئلة : ما هي أهمية التناص لخطاب بعينه ؟ وما هي أهميته للسانيات اللغة ؟ وللأسلوبية ؟، وهل يمكن خلف تصنيفية ما typologie للتناص ؟، فالاستشهاد تكرار أو معاودة بين خطابية répétition interdiscursive، إذ هناك في اللغة ظاهرة التوظيف المعاود لبعض مكوّناتها، تماما مثل أنظمتها النحوية وغيرها كمعطيات لغوية عضوية، فالظاهرة التناصية تكرّس ذاتها في إعادة توظيف واستعمال النصوص السابقة مهما كان شكل هذه النصوص : كلمة تمثل الخطاب الذي وردت منه أو جملة أو قول مستجلب بين قوسين، فما هي شروط المعاودة البانية لمعمار النص بحيث يتمظهر وجودها تمظهرا طبيعيا ؟ والمقصود بالطبيعي أنها تورد كفعالية من فعاليات اللغة prendre une valeur de fait langagier، فأين تكمن إمكانية تحليلها على هذا الأساس ؟ و يمكن أن ننطلق من تصنيفية ما لمستويات التحليل اللساني (E.Benveniste.1974.p224) ، ففي ميدان اللغة، النظام العضوي المتحكم الذي اتخذت اللسانيات سمة العلمية وهي تدرسه يتميّز أساسا بتكرار عناصر محدودة يقال لها : الفونيمات les phonèmes أما المستوى الثاني فيتكون من المورفيمات les morphèmes والتي تتشكل كعلامات دالة ومستقلة في التركيب syntagme، وحين نعلم أن هذه التشكلات محدودة العدد، فإن تكرارها يصبح ضرورة (الفونيم في العلامة والعلامة في الجملة) أي ذات قابلية لأن تتشكل في مستوى أعلى، وهذا عالم اللغة، ولكن بنفينيست يضيف إلى ذلك مفهوم اللغة . الخطاب كتقابل langue / discours .

فإذا كانت اللسانيات يتوقف تحليلها عند حدود الجملة، فإن مفهوم الخطاب يرتقي بمستويات التحليل درجة، ويجعل المعاودة والتكرار ظاهرة لغوية، أي جزء لا يتجزأ من النشاط اللغوي لكن هذه المرة على مستوى الجملة والفقرة والنص الطويل، وهكذا يأخذ التناص شرعية وجوده كفعالية طبيعية في اللغة، مما يكسبه طابع الحتمية الوجودية فلا نص يأتي من فراغ بل النصوص تنسل بعضها، أي نشاط يكتسب طابع الوظيفة، فالتناص علاقة خطابية بين عناصر لسانية une relation discursive entre éléments linguistiques، فالجملة هي أكبر وحدة في اللغة وأصغر وحدة في الخطاب، لنتحول إلى مستوى ثالث من التحليل هو العلاقة بين الخطابات، هنا ندرس الاستشهاد citation والأمثال proverbe، نقل الخطابات الأخرى بشكل مباشر أو غير مباشر discours direct ou indirect، التقليد أو المحاكاة imitation، النقل الناسخ copie، التعقيب réplique، والمعارضة التي تبتغي التقليد وإثبات الذات pastiche والمصدر source والتأثير influence والتعليق commentaire (Compagnon.p54) وهناك من يضيف إليها اللازمة le refrain في الشعر، نوع خاص من الإعادة والتكرار وهو ما يعتبر تناص النص مع ذاته intra textuel وكل تلك الأشكال . ما عدا اللازمة . عبارة عن استجلاب وحدة خطابية وإلحاقها بخطاب آخر، هذا الإلحاق يتميّز بالحرية في تخيّر العبارة ولكنه حتمي كظاهرة لغوية باعتبار محدودية الوحدات الخطابية المشكلة لأفق الخطاب، وإذا كانت الوحدة الخطابية تأتي بجديد دلالي في كل استعمال فهذا يعني انتقال الدورة الدلالية في كل مرة من الدلالة signification إلى التدليل signifiance، كل هذا مع الحذر من الخلط بين التكرار بين الوحدات التي تمثل خطابات متداخلة والتكرار العادي لكلمات بعينها، هذه الأخيرة هي ميزة أسلوبية صرفة، كما يجدر بنا التفريق بين الشاهد والاستشهاد، أو بين التناص والمتناص l'intertext et l'intertextualité تماما كالفرق بين الملفوظ والملفوظية énoncé et énonciation أي بين المنتَج والعملية الإنتاجية، فالأول ملفوظ مستجلب أما الثانية فهي تفاعلية منتجة للمعنى بين الوافد والمقيم من معمار النص، فينشأ تعدد دلالي ويغتني المعنى، وتصطدم الخطابات وتتصارع فتخصب الدلالة، فلو أردنا أن نمثل لما يحصل برموز رياضية لقلنا : إذا كان المقطع الوافد l'hypotext نرمز له بالرمز (أ) والنص المستقبل l'HyperText بالرمز (ب) وإذا كان سياق الأول (ج) وسياق الثاني (د)، فإن تشكل المعادلة

الجديد هو الدلالة التناصية :(هـ) = أ+ ب + ج + د . ويعني هذا أن دلالة تتشكل كلمفوظ مستقل له سياقه الجديد الخاص به، أي كيان متفرّد ونظام علاماتي يصنع لذاته طريقة تشكّله داخل اللغة، أي يصلح خطابا يكوّن مرجعياته الخاصة به وفق " مبدأ التميّز " principe de non redondance (E.benveniste.p43-66) بين الأنظمة، أو بين نصّين في نقطة لقاء غير قابلة للتحول inconvertibilité entre deux textes، فتكرار الملفوظ بينهما مفهوم منطقيا لكنه متفرّد بالنسبة للملفوظية كظاهرة لأنه يصنع ترتيب جديد للتركيب المتشكل .

التناص والسيميولوجيا :

هذا يعني أن التناص له أوجه عديدة يتلوّن بها ويصنع الاختلاف حتى ولو تكرّرت الملفوظات في عمومها وانتقلت حرفيا من نص إلى آخر كون المتناص فيها حامل لأنظمة علاماتية يتعين علينا دراستها، ولكن ذلك تعترضه صعوبات مفاهيمية تتمثل في التعريف المعطى للعلامة، لأنه إذا كان الشاهد في التناص عبارة عن جملة أو سلسلة جمل فإنه لا يُعتبر علامة لأن الجملة وحدة لغوية وكذلك وحدة خطابية فقط، " فالجملة حاملة للعلامة ولكنها ليست علامة في ذاتها " (E.Benveniste.p129) لأنها لا ترتقي إلى وحدة لغوية أعلى، ولأنها " وحدة تجريبية لا تعوّض ولا تنعكس " (J.Derrida.1967.p55)ولكنها فاقدة للهوية الشكلية التي تسمح بالتعرف على العلامة فيها، هذا موقف بنفينيست منها، لأنه لم يكن يود توسيع دائرة التحليل السيميولوجي، ليشمل دلالة الملفوظية sémantique de l'énonciation إنه يرفض هيمنة اللسانيات البنوية على فعاليات اللغة بقصرها على الملفوظ بواسطة مفهوم العلامة، لكن ارتقاء الجملة إلى مستوى وحدة خطابية ألا يؤهّلها لتكون علامة ؟ وتكرار تسلسل جملي بين نصّين لغاية خطابية ألا يكسبها صورة الملفوظ الموحد الذي يستحق أن يوسم كعلامة بالنظر إلى وحدة الأثر الدلالي التي يخلّفها ؟ خاصة وقد أشار فرويد إلى أصل العلامة وتكوّن المفهوم من خلال المعاودة والتكرار (S.Freud.1971.p22)كقاعدة فهم وتقبّل بسيكولوجي، بما يتوافق مع آلية عمل اللغة كما يصفها هوسرل في مقاربته الفينومولوجية (E.Husserl.1961.p44-63) فالشاهد citation تسري عليه مواصفات العلامة ويسري عليه حكمها، وقد قام بيرس باستبدال المفهوم العلاماتي المعتمد على ثنائية : دال مدلول signifiant- signifié مع الحاجة إلى ذكر المرجع le référent ببنية ثلاثية الأبعاد تتضمن المعنى أو تأويل

المعنى l'interprétation، فالثنائية الأولى كانت تلجأ دائما إلى المعنى السياقي connotation لتحليل ما يخرج عن التصنيف اللساني من تعابير، فنظرية بيرس تعتمد على اعتبار العلامة signe تمثيلا رمزيا " للشئ " أو " الموضوع " الذي تشير إليه، ولكن الدائرة الدلالية لا تكتمل إلا بعنصر ثالث هو المؤوّل l'interpretant، ففي مقطع سردي مثلا عبر جزئية نصّية غير مكتملة كما يلي : " دخل حاتم وأغلق الباب، كانت بقع الدم على أرضية المدخل تتابع ناحية الحمام أو المطبخ المتجاورين، هاله المنظر وتأوّل الأسوء، ولكنه ركن التياعه حتى يستجلي الأمر "، فيمكننا تمثيل ثلاثية بيرس كما يلي في تأويل المنظور السردي :

(كلمة الدم : علامة) . (الدم : موضوع) (المؤوّل : 1 . الدم دال على حادثة قتل داخل المنزل . 2 . الدم سيلان طبيعي من الأنف بسبب الحر . 3 . دم حيوان مذبوح أُخذ إلى المطبخ بغية طهيه .... الخ، فالمؤوّل لا حدود له لأنه صيغة تفسيرية لمجموعة من الاحتمالات، ولكنه هو الذي يرجع إليه تشكل المعنى، وذلك ما يقارب التفسير النيتشوي للعلامة، وثلاثية البعد هذه تتوفر في توظيف الشاهد التناصي كونه يُلحق نظامين خطابيين ويُفاعل بينهما، لكن الدلالة المترتبة عن هذا التفاعل هي مجهود مؤوّل يستوعب المعنى بكل ثقافته القبلية ثم يصيغه مما يصنع فارقا في تشكيل الدلالة بين متلقي وآخر، وهذا يعني أن الصيغ التأويلية لا تنتهي، فعند بيرس " A signe or representatem, is something which stands to somebody for something in some respect or capacity " (C.S.Pierce.1940.p99)

إذن العلامة عنده تمثيل لشيء عند شخص ما بعلاقة ما أو كيفية، وأهم عنصر هو الشخص فلا علامة بدونه، يتلقاها ويؤوّل بواسطتها، إن هذا المسار الإدراكي المعرفي هو الذي ميّز بيرس كأحد رواد المدرسة البراغماتية خاصة حين صنّف العلامات إلى حوالي سبعين نوع (A.w.Burks.1945.p383-383) ، لكن لن نهتم هنا سوى بالفئة التي تخدم موضوعنا والتي يعتمد التصنيف مبدئيا عليها، حيث توجد ثلاث طبقات من العلامات تعتمد على نظام إدراكي يشكل منظومة معرفية تتعقد بحكم التقاطع الحاصل :

أ (العلامة في ذاتها)	ب(علاقة العلامة بموضوعها)	ج(العلامة المؤوّلة)
العلامة النوعية qualisign	الأيقونة Icon	التأويل الممكن rheme
العلامة المفردة sinsign	الإشارة index	التأويل الفعال proposition
العلامة الحرفية legisign	الرمز index	التأويل الحجاجي argument

فإذا كانت الخانات الثلاث (عموديا ج) أقرب إلى التوصيف الميتافيزيقي، فإن بقية الخانات الست يمكن أن تُستخدم في تحليل العلامة حين نعني بها الشاهد التناصي في علاقته مع سياقه الأول، ثم في علاقته مع سلسلة المؤوّلين بعد دخوله في سياقه الجديد مع جميع احتمالات الأوضاع النسقية التي يمكن أن يتواجد فيها، مثل اختلاف أشكال ومضامين الكتابات في إطار التنوّع الأسلوبي، مع تلاحق الاستشهادات حين تريد النصوص أن تغيّر جلدها من خلال التحوّل الخلاق se métamorphoser فالأيقونة تناصيا تكون بمثابة المفردة التي تستدعي خطابها الملتصق بها حتما، فحين نقول" يسري به " تحيلنا الكلمة بالضرورة على قصة الإسراء والمعراج والقرآن الكريم كمتن نصّي حتى ولو وردت الكلمة في نص أدبي، فرسم الكلمة يستدعي مقروءا سابقا يناديه كمضمون، فالذاكرة المعتمدة على البعد البصري تفعل فعلها في الربط بين المتنين، لكن الربط ليس ميكانيكيا، إنما هو يعتمد على الوعي بمجمل التغييرات التي يمكن أن تطرأ على النص الثاني الذي وظف الأيقونة (الكلمة)رغم إقرارنا أن التفاعلية تبقى في مستوى أول، أي أدنى من المستوى الثاني المتمثل في الإشارة، ومن هنا يكون التأويل بها ممكنا باعتبار الأيقونة محايدة في حد ذاتها ولكن المعنى يتشكل بناءا على مسبوقها ولاحقها كمسار دلالي يترى ويتشكل .

ويمكن هنا أن نتساءل لماذا تكون الإشارة مستوى أعلى من الأيقونة ؟ ذلك أن الأولى علاقتها بالماسبق استنتاجية (حين يكون الدخان علامة على وجود النار) ولكن على مستوى التفاعل النصي يصبح الاستنتاج أكثر تعقيدا ذلك أن الإشارة ليست في تمام وضوح الأيقونة وبالتالي يصبح المتلقي (العارف المتمكن فقط) يقارن بين نمط خطابات سابقة تفعل فعلها في أخرى لاحقة وهنا نصبح بإزاء دوامة من النصوص حاملة كل منها هويتها الخاصة المتشكلة من عدد غير محدود من المعطيات، لذلك تأويلها يعتبر

فعالا لأنه مبني على منطق مقارن لكنه تفاعلي يستنتج التأثير ويستمتع به كصورة نصية جديدة تحمل الجدة ليس فقط شكلا، أي نوع من تطعيم النصوص بتالدها بل الجدة تكمن في توظيف وسائط متنية تخلق جماليات في اللغة غير معهودة، لنصل في آخر المطاف إلى الرمز، الذي يجسد العلاقة المجازية بينه وبين ما يعود عليه أو ما يمثله، وهنا تصبح حرية التأويل أكثر اتساعا، والاتساع هنا يتجاوز العلاقة المنطقية التي يقيمها المتلقي، فيلجأ المؤلف الرامز إلى الإيغال في فبركة العلاقة التناصية بين متنين، وإذ هو يعلم بعد الشقة في إقناع المتلقي فإنه ينتهج التأويل الحجاجي للدفاع عن رؤيته، ويكون ذلك في مقارنة نصّين ينتميان إلى أنساق فكرية مختلفة أو لغات مختلفة ،ومحاولة الإيحاء بتأثير أحدهما على الآخر واستجلاب لذلك ممكنات طرائق التأثير وتسويغاتها، فمنتهج هذا التأويل عليه أن يراهن على قدراته الخاصة في هضم الكم الثقافي والمعرفي الذي يتصدّى له .

المعاودة :

تكرار الملفوظات شائع في اللغة، لكن التكرار المبني على حاجة دلالية له خصوصيات لذلك ندعوه بمصطلح مميز هو " المعاودة " لتمييزه عن التكرار لغايات تعليمية أو إفهامية سطحية، فالمعاودة تصبح رديفا لتوظيف شاهد ما في نص لاحق فتتحول إلى قيمة خطابية، لأن الخطاب يمكن أن يستغني عن التناص حين يكون الخطاب يعي التوظيف التناصي، فاستعانته به يكون لغايات جمالية أو حجاجية أو غيرها، فحلقة براغ الليسانية أول ما قرّرته أنه حين نحلل اللغة كتعبير وكتواصل فإن غرض المتكلم الأول هو بيان الحال بسهولة ويسر، فإذا أردنا أن نعمق البحث في الكيفية، نجد لدى المتكلم خيارات عدة في متلفّظه للتعبير عن نفس الفكرة (E.Benveniste.p227) ، في هذا التنوّع الحاصل توجد . إلى جانب العبارات المستحدثة وفقا لكل مقام من باب الهدم وإعادة التركيب . عبارات منقولة كما هي ready made تلوكها الألسنة كموروث قولي دون تغيير، أو تتناقلها النصوص دون تحريف، وتلك هي الشواهد، ومستخدم اللغة بين خيارين له مطلق الحرّية إلى أيّهما يجنح، لتضحى حرية الاختيار سمة لغوية، ويصبح التناص خيارا، مما يميّز . بعض التميز . الشواهد عن العلامات اللسانية والتي هي عموما اعتباطية في علاقتها مع مرموزها، وقد بيّن بن فينيست الكيفية (E.Benveniste.p49-56)فلا شيء يعلل العلاقة بين المفهوم وصورته الصوتية أي العلاقة اعتباطية ولكنها نتاج تواضع إنساني من جهة أخرى، أي تعاقدي

contractuel، بما يعني إرادة ما لوجودها، وكذلك الشاهد حين نسأل : ما الذي جعل مؤلف ما يختار هذا الشاهد دون غيره مع تواجد البدائل ؟ مما يظهر الفعل وكأنه اعتباط ولكن هذا التخيّر تم بإرادة من المؤلف فيظهر وجهه التعاقدي، فالشاهد سُمع أو قُرئ، ثم أُعيد توظيفه ليكتسب النص قيمة ما valeur، فالتخيّر لا يلغي نسبة معيّنة من خبط عشواء، ويبقى غنى الدلالة هو الحكم الوحيد على صواب الاستعانة بالشواهد التناصية التي ترتقي بفعل الكتابة نحو اعتناق آفاق الأدبية، لكن عنصر الصدفة في انتخاب شاهد ما قد يتراجع حين نقرأ تبريرات سيغموند فرويد والتحليل النفسي في تفسير مضاد لما قدّمه هوسرل من أن المعنى Bedeutung هو ما يريد أن يقوله خطاب ما، في إخراج مكنونات النفس بشكل متعمّد وواعي ومخطط له عن بصيرة، فليس هناك إرادة قول دون تخطيط مسبّق (Derrida.p68)غير أن التحليل النفسي يجد مبرّره في اللاوعي l'inconscience بلسان حال لاربو حين قال " بيت شعري جميل، جملة تثير مكامن الإعجاب فيك فتثبت في ذاكرتك ولا تغادر، فهي بمثابة عمل فني رفيع لديك تستحق منك الالتفات كمن يشتري لوحة زيتية يدرك أهمّيتها، ليغذي في ذاته زهو الامتلاك وغرور الذات العارفة بمواطن الجمال والذوّاقة لتفاصيله، والرغبة بمشاركة الآخرين فيما نهيم به من المتع الفنّية عبر إعادة عرضه كل مرة تسنح به الفرصة للتباهي " (V.Larbaud.1946.p215) فاللاوعي متحكم أيضا في توجّهات أفعالنا، فكثير من الرغبات المطويات داخلنا تجد لها منافذ من خلال القراءة والكتابة فتعيد ذكر بعض الكتابات وتردّدها لحاجة في نفس يعقوب، فالعبارة تغري، تهيّج، وتحث على التمثّل، وتمثلها يعني تكرارها في مكتوب ما مكره أخوك لا بطل، لأن القارئ إنسان مفطور على حب الجمال أنّى وجده ينفعل به، ولا ريب أن من البيان لسحرا، فينشأ التعلق من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم، ويأتي بعد ذلك الترديد الذي لا ينتهي .

المراجع

Aragon L. *La mise à mort* . Paris, Gallimard, 1973.
Barthes R., *Roland Barthes* , Seuil , Paris . 1975
Benveniste E. *Problèmes de linguistique générale* , Paris , Gallimard . 1974 . T1 et T2
Borges J . L. Essai sur les anciennes littératures germaniques, Paris Union d'édition .
Borges J . L. *L'auteur et autres textes* , Gallimard , Paris . 1965.
Burks A.W.Weiss P. Pierce's Sixty Six Signs. *The Journal of Philosophy* New York . 1945
Compagnon A. *La seconde Main* . Seuil , Paris. 1979.
Derrida . J *La Voix et le Phénomène* . PUF . Paris . 1967 .
Deleuze G., *Nietzsche et la Philosophie* , Paris, PUF. 1970
Fontanier P. *Les figures du discours* , Flammarion .Paris. 1968 .
Freud S. Au-delà du principe de plaisir . Essais de psychanalyse . trad . Paris . Payot . 1971
Husserl E. Recherches logiques . trad . PUF . Paris . 1961
Larbaud V. Sous l'invocation de saint Jérôme . Gallimard . Paris . 1946.
Massignon L., *Parole donnée*, Paris, Union Générale d'éditions,1970.
Pierce C.S .Selected Writings .Harcourt. New York.1940.
Zumthor P. « Le carrefour des rhétoriqueurs », *Poétique* . n° 27 . 1976.